المحاضرة الحادية عشر: مدخلات المستشرقين في التاريخ العربي (2)

- التجني على الامويين:

تأثر بعض المستشرقين بالنزعة العرقية التي شاعت في أوربا وبما شهدوه في تاريخهم من صراع دموي بين القوميات، ففسروا التاريخ الإسلامي من خلال تجربتهم الذاتية، فذهب بعضهم إلى القول أن الدولة الأموية دولة عربية لا يعنيها إلا أمر العرب في المجتمع الإسلامي، أما غير العرب فهم مواطنون من الدرجة الثانية " لا يشفع لهم حتى الإسلام" !!، ومن جهة أخرى تصور فئة من المستشرقين العصر الأموي تصويرا دمويا وتصبغه بصبغة الحرب المستمرة متناسية أو مهملة انجازات الأمويين الإدارية والسياسية والحضارية.

يعتبر المستشرق الالماني "فولهاوزن" أن الامويين بأنهم "قليلو التدين" وأن هذا هو سبب حسن علاقتهم بالمسيحين، كما شكك في تديُّن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بأنه لم يكن لديه تعمق كبير بالإسلام. ويصف فلهوزن عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه ألب على عثمان أخبث تأليب إبان الثورة عليه، ويصف تحالفه مع معاوية رضي الله عنه بأنه "تحالف الصبية الأشقياء"، ووصف المغير بن شعبة رضي الله عنه بأنه كان دائم الكذب، في حين يصفه بروكلمان بأنه انتهازي لا ذمة له ولا زمام .

وقال فولهاوزن عن معاوية بانه لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام، وفي الواقع هذا غير صحيح فالرسول ﷺ اتخذه كاتبا للوحي وهي صفة لا ينالها الا موثوق بدينه امين عليه، أما عن المستشرق «لويس» فقد تجاوز من سبقه من المستشرقين إذ لم يكتف بوصف عثمان رضي الله عنه بضعف الشخصية كما فعل «ميور» و«ارلوند» ولكنه وصفه بالجبن دون أن يكلف نفسه عناء البحث التاريخي للبرهنة على هذه الفرية ، فمن المعروف أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان صاحب شخصية قلما تجتمع في خليفة أو مسؤول.

واتهم بروكلمان هشام بن عبد الملك بالبخل وسوء الادارة، وكان يحمل ولاته على الامعان في ابتزاز الاموال من الرعية ليس هذا فقط بل زاد في الخراج،حتى عمر بن عبد العزيز انكروا عليه احسن صفاته وهي العدالة ، فيث يقول فولهاوزن ان عمر لم يعد سمرقند الى اهلها مع انه اعترف ان المسلمين استخدموا وسائل خبيثة للسيطرة على المدينة والاحتفاظ بها، بينما يشهد التاريخ ان عمر بن عبد العزيز حكم بانسحاب الجيش الاسلامي من المدينة ولكن اهل المدينة بعد ان اعتادوا على الحكم الاسلامي وما حققه لهم تلك المدة طلبوا البقاء ضمن دار الاسلام اختيار منهم.

والجدير بالذكر ان المستشرقين قد وجدو في وضعية الموالي في عهد الدولة الاموية مادة تاريخية كبيرة وقاعدة للطعن في هذه المرحلة من تاريخ الاسلام ، فقد اشاعوا ان الدولة الاموية تبنت سياسة التمايز الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تجاه الموالي بحيث استغلتهم واضطهدتهم، كما أن المجتمع نظر الى الموالي نظرة احتقار وازدراء، وان هذا التمييز الذي قاس منه الموالي كان سبباً في انضمامهم الى الحركات المناهضة للدولة .

ولم يسلم حتى العصر العباسي الاول من طعن المستشرقين فالمعروف أن المستشرقين الذين درسوا هذه الفترة سواء تخصُّصاً أو عموماً كآدم متز، وجروينباوم، وفيليب حتي، المعروف أنهم خلعوا هذا العصر صفة المجون والخمر والغلمان ، واعتبروا رجاله الكبار – حتى الخلفاء– رموزاً لهذا الواقع ؛ أدباً وسيرة ، وقد تأثر بهم الكثير من المفكرين العرب فاعتبروا العصر العباسي الاول عصر مجون وترف وشذوذ ومنهم طه حسين في كتابه "حديث الأربعاء"، وجورجي زيدان في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي"، وشوقي ضيف في كتابه " العصر العباسي الأول ".

التركيز الاضطرابات الاجتماعية :

ركز بعض المستشرقين على التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الاسلامي وسيطرت العنصر العربي فيه، واضطهاد الفئات الاخرى فنجدهم يكثرون من دراسات

الاضطرابات الاجتماعية كثورة الزنج ، حيث يقول فولهاوزن بعروبة الخوارج واعجمية الشيعة، ونجد عند" رنهارت دوزي" ما يشبه ذلك فان هناك تشابه بين افكار الزرادشتية والفرس القدامى من جهة مع غلاة الشيع، وقد قسم المستشرقون المجتمع الاسلامي الى عدة طبقات، فحيث يتحدث نيكسون عن أن الموالي قد لقوا من "أسيادهم الأرستقراطيين معاملة كلها ذل وهوان"، بل يصف "سايكس" الأمويين بأنهم "الأرستقراطية الوثنية"، يفترض المستشرقين وجود صراع بين العرب والموالي في الدولة الأموية وانه كان صراعا طبقيا، فقد اشتعل الصراع بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء في حين أن حال الطبقات الوسطى من الأهالي أخذت تسوء في أواخر أيام بني أمية.

وقد درس بعض المستشرقين اهل الذمة في الاسلام وخاصة اليهود ومكانتهم في العالم الاسلامي، ووصل ببعض المستشرقين الى الحد الطعن في الاسلام باعتبار ان الرسول ص الله عليه وسلم قد اخذ بعض المبادئ من اليهود، فقد الف المستشرق "كويتاين" كتاب سماه "الايحاءات اليهودية على محمد"، ومن الباحثين الذين درسوا اهل الذمة المستشرق "تريتون" في كتابه" الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين"، ومنهم "سيرجنت وجل" الذي الف كتاب بعنوان" وثيقة المدينة المنورة ".

وكذلك المستشرق فيشل في كتابه " اليهود في الحياة الاقتصادية والسياسية في الاسلام الوسيط "، والمستشرق "كوتيابن" في كتابه " اليهود والعرب"، ومن اكثر الكتب اهتماماً باهل الذمة كتاب " الضرائب في الاسلام في الفترة الوسيطة"، ورغم ان المسلمين كانوا يعاملون أهل الذمة معاملة حسنة على عكس ما كان يعامل فيه الأوربيين اليهود إلا ان الكثير من المستشرقين كان يروجون لفكرة عزلة اهل الذمة وتعرضهم للتمييز والاضطهاد، ومنهم المستشرق "ستراوس" الذي الف كتاب بعنوان "العزلة الاجتماعية لأهل الذمة"، وقد استغل هؤلاء حوادث فردية معزولة لكنهم

عمموها على كامل الفترات التاريخية بقصد القول بان المسلمين كانوا يعاملون اهل الذمة معاملة سيئة

- التركيز على التاريخ السياسي :

تركيزهم كان على التاريخ السياسي بما فيه من غدر وحروب ونهب واغتيالات وأهملوا الجانب الحضاري، يعرضون تاريخنا على أنه تاريخ بلا حضارة، تاريخ بلا ثقافة ولا فكر، وكأن الأمر لا يعدو أن يكون مزيدا من الاختلاف والتنازع السياسي والعسكري، فالتاريخ العلمي والثقافي لأي أمة مهم جداً لأن تأثير القوى العلمية والثقافية في توجيه الشعوب، أقوى من إرادة أولئك الحكام الذين ركز عليهما المستشرقون

وحتى عندما كانوا يثبتون عظمة الماضي كانوا ينسبوه لغيرنا، فقد قالوا ان العرب تمكنوا من أن يهضموا العناصر الغربية من الحضارة اليونانية والرومانية وتمثلونها وأدخلوها في نسيج حضارتهم، كأنهم يقولون بان الحضارة العربية هي مسروقة عن اليونانية.

- الفتوحات الاسلامية هي غزو ونهب :

هـ. ج. ويلز» :H. G. Wells وصف الفتوحات الاسلامية بقوله: «إنها أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري». أما ويل ديورانت .W Durantفيصفها في كتابه الشهير «قصة الحضارة» بأنها «أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله، ويقول المستشرق الألماني يوسف هل» :J.Hell إن السبب في ميل الشعب العربي إلى الهجرة هو جفاف بلادهم، وقد اقترن هذا الجفاف بظهور الإسلام مما أدى إلى ذلك الانقلاب في التاريخ العالمي».

وقد زعم ويل ديورانت أن الفتوحات الإسلامية كان من أسبابها انهيار نظم الري في جزيرة العرب «فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار. ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي

من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو»، أما المستشرق الإنجليزي ستانلي لينبولS.Lane– Poole فقد جعل من المغانم الدافع الأساسي للغزو، على حد زعمه حيث يقول: «وما أكثر ما طمعوا في البلاد الغنية التي تحيط ببلادهم المجدبة، إلا أن العرب كانوا يحتاجون إلى أمرين يحفزانهم إلى التوسع في الفتح، هما: الوحدة الوطنية والدافع القوي، حتى جاءه بهما محمد النبي العظيم، فجمع شمل العشائر المتنافسة المتناحرة وألّف بينها" ، بينما قال نلسون: " بانه أخضع سيف الإسلام شعوب آسيا وأفريقيا شعبا بعد شعب " .

ويزعم مارجوليوت أن غزوات الرسول ﷺ كانت للسلب و النهب، وهذا ادعاء رخيص ذكره في كتابه " محمد وشروق الإسلام ": " قد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على السلب و النهب، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك على أية حال سبب ما حقيقيا كان أو مصطنعا يدعو إلى الانتقام منهم، " قال كارل بروكلمان " حاول النبي أن يعوض من فشله الظاهري في الحديبية، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر " يقول شوقي أبو خليل : عجيب غريب أتراه لا يعلم أن وفد اليهود برئاسة حيي بن أخطب جعل لغطفان تحريضا على الخروج لقتال المسلمين نصف تمر خيبر كل عام ؟!! .

أثار ايرفنج في كتاب أعده عن الرسول صلى الله عليه و سلم موضوع الجبرية و ادعى أن الرسول أصدر هذا القانون بعد هزيمة المسلمين في أحد و كثرة القتلى في صفوفهم و هو في ادعائه هذا غير صادق، قال إن الرسول اعتمد اعتمادا كبيرا على الجبرية ، ضمانا لنجاح شئونه الحربية ، و برر مذهبه بأن كل حادث يقع في الحياة قد سبق في علم الله و تقديره و كتب في لوح الخلد قبل أن يبدأ الله العالم، و قال أن المسلمين ءامنوا بهذا المنطق إيمانا بعيدا و أنهم خاضوا المعارك تحت تأثير هذا المنطق دون أن ينال منهم خوف ، فما دام الموت في المعارك هو عدل الاستشهاد

، فإن الثقة بالفوز في حالتي النصر أو الاستشهاد هي التي كانت تدفع بهم إلى المعارك دون تردد " يرى نفر من المستشرقين أن الإسلام لم يستقر في نفوس المسلمين إلا في العصر العباسي (قياسا على أن النصرانية لم تبدأ في الانتشار بين الناس إلا في القرن الرابع الميلادي).

يقول المستشرق "أنتونى نتنج" وهو يجزم بباطله والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادئ، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التي كانت تسود القبائل، والتي خطر عليها أن تشتبك فى معارك أخوية.

بشكل عام يمكن القول ان المستشرقين نشروا فكرة عامة عن الفتوحات الاسلامية مفادها أن العرب تحركوا في القرن السابع لفتح الدنيا بسبب ضيق الرقعة الجغرافية في شبه الجزيرة مع نقص الموارد الاقتصادية، وقد تحركوا بداة جائعين للاستيلاء على حقول ومزارع وبيوت الشعوب المتحضرة، ثم إن حوادث الصراع تدل على وجود تناقضات اجتماعية جذرية لدى العرب، ويمكن أن نرى أمثلة موضحة لهذا كله في كتابات "كاهن والبيف" ولويس و"كابريلي" و"غلوب" وسواهم من المستشرقين.

الطعن في الرسول "ص":

يرى المستشرق الإنجليزي مونتجمري وات أن خلوة النبي ﷺ في غار (حراء) قبل البعثة ، كان سببها محاولة الهروب من حَرّ مكة والاصطياف بهذا الجبل لأنه لا يستطيع السفر إلى الطائف كأغنياء قريش*

يقول المستشرق الامريكي واشنطن ارفينج : أن النبي ﷺ اتصل باليهود والنصارى وتأثره بهم: حيث زعم أن فكر النبي ﷺ قد نالته الخصوبة عبر تلاقيه في رحلاته مع المسيحيين واليهود النازحين من الاضطهاد الديني من عسف الاضطهاد الديني خارج الجزيرة، ويذكر في موضع اخر:لاشك أن ثراء زوجته وفّر له الوقت الذي أمضاه في التأمل والبحث الديني وأفاده في بحثه رحلاته الكثيرة وتحدثه إلى اليهود

والمسيحيين، وزعم ان التقاءه بالراهب "بحيرا" دورا في تعلمه لمبادئ المسيحية، حيث يقول أن ذلك الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير في هذا الشاب الذكي ابن أخي سادن الكعبة، ورأى انه خير من يحمل بذور المسيحية الى مكة.

في مقدمة كتابه تاريخ حياة سيدنا محمد يقول اتيان ديني: إنّه من المتعذّر إنْ لم يكن من المستحيل أنْ يتجرّد المُستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم نزعاتهم المختلفة، وإنّهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبيّ والصحابة مَبلغاً يُخشى على صورتها الحقيقيّة من شدّة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من أتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد .